أوّل الكلام

أميركا: إمبراطوريّة الكذب والعدوان

■ د. محمد محمود مرتضى[1]

يحتوي فعلُ «الوجود» عند الإنسـان، على مفارقةٍ تاريخيّةٍ وفلسـفيّةٍ قديمة، وهي مفارقةُ ضرورةِ وأهميّـة الاجتماع البشريّ كحاجـة حيويّة له لبقائه وديمومة وجوده، ومـن جهة أخرى تحتوي هذه المفارقـة على عنـصر المزاحمةِ والـصّراع، الّذي يولّده وجـود الآخر في الحيّز الزّمـانيّ والمكانيّ نفسـه. لقد أدّت هذه المفارقة المزدوجة إلى نشـوء تصوّرات فلسـفيّة متعدّدة لحلّ هذا الاشـتباك المعقّد، وإيجادِ نسـق يستطيع أن يقدّم مسارًا يتعايش فيه البشر مع كلّ الاختلافات الثّقافيّة والعرقيّة والحضاريّة. إنّ المدارس النّظريّة الصّراعيّة ومذاهب القوّة، تتفّق على أنّ خصائصَ ثقافيّة أو عرقيّة أو حضاريّـة ما، تعطي الحقّ بالقوّة لجماعة ما، على أن تنال نصيبًا أفضل وأكبر من غيرها في الوجود، ويشـكّل هذا الصّراع ونسـق القوّة، الحلّ «الطّبيعيّ» الّذي تقدّمه «الطّبيعة» والتّكوين للإنسان، مع الإذعان المسبق بسقوط الضّحايا والخسائر "المناسبة" لهكذا صراع على البقاء. إنّ التّاريخ البشريّ، يشـهد على هذا الـصّراع الفكريّ العميق والدّقيق، والخطرِ في الوقت نفسـه، والّذي لوّن مشـهديّة التّاريخ بلون الدّم الأحمر، ولم يخلُص إلى حدّ الآن إلى صنع مستقبلٍ آمن للبشريّة. رغمَ أنّ الأديان الوَحْيانية والسّماويّة الإلهيّة، وخصوصًا الدّين الإسلاميّ بطرحه الخلاصيّ المهدويّ، قدمت طرحها الخاصّ في نجاة الإنسـان من قدرِ القتل والمسـار الدّموي للبقاء حيًّا، إلاّ أنّ الظّروف الموضوعيّة لهذا الطّرح لم تتكامل إلى حدّ اليوم.

على أنّ القرن الواحد والعشرين يشكّل محطّة مناسبةً، لإعادة النّظر بالمرحلة التّاريخيّة الفائتة على مسـاحة قرن ونيّف مـن الزّمن، حيثُ تزامن عنصر التّقدم والتّطـوّر التّكنولوجيّ، والتّقنيّ، والعلمـيّ، والانفجار الهائـل في عصر المعلومات والحوسـبة، والصّناعات الثّقيلـة والذّكيّة، والاختراعـات الدّقيقة، مع بروز الحضارة الأميركيّة كقـوّة عالميّة كبيرةٍ ذات قدرات ضخمة في

1 - مدير مركز براثا للدراسات والبحوث (بيروت)، ورئيس تحرير مجلة أمم.

العديد من المستويات. هذه الطفرة التكنولوجية، خاصة في قطاعات المعلومات والإعلام والاتصالات، لم تكشف إلّا عن وجهٍ صراعيّ دمويٍّ للحضارة الأميركيّة، طالعته البشريّة منذ احتلال القارّة الأمريكيّة انعكست في مرآة الحرب العالميّة الأولى والثّانية، وما بعدها من الحروب البينيّة والإقليميّة والدّوليّة إلى هذه اللّحظة، مخلفةً ملايين من القتلى والضّحايا والدّمار الواسع، مع تنوّع كبير في أدوات وأساليب القتل والممارسة الإفنائيّة للجماعات والشّعوب، والطّبيعة.

ثم إنّ التوقّف عند «الحضارة» الأمريكيّة، يحيلنا الى ثلاثة محاور صبغت التّاريخ الأمريكيّ:

المحور الأوّل: التّنظير الفلسفيّ للقتل؛ حيث دأب المنظّرون الأمريكيّون، تبعًا للمنظّرين الأوروبيّين، على فلسفة عمليّات القتل والعدوان، بمبرّرات استعلائيّة تارة، وحضاريّة تارة أخرى، تحت شعارات حقوق الإنسان والدّيمقراطيّة، ورفع مستوى الوعي، وتأهيل الدّول لحكم نفسها، والدّفاع عن الأقليّات، والأمن القوميّ، وما إلى ذلك من شعارات مخادعة، مستعملين في ذلك مختلف أساليب القمع والعدوان العسكريّ والسّياسيّ والاقتصاديّ إلخ.

المحور الثّاني: على أنّ تحقيق النّتائج المرجوّة في المحور الأوّل، لا تتمّ إلّا إذا تلازمت مع حملة دعائيّة، وتضليل إعلاميّ كبير يُنفق عليها مليارات الدّولارات؛ إذ لم يشهد التّاريخ هذا الحجم من الضّخّ الإعلاميّ المزيّف، ومن التّضليل المبرمج، ومن الإنفاق على وسائل الإعلام المختلفة، هذا الإعلام الّذي يدّعي الموضوعيّة، ليظهر لاحقًا أنّه أبعد ما يكون عنها، ولتكشف الحرب على غزّة، وما قبل غزّة وما سيأتي بعدها. إنّ هذه الإمبراطوريّة الإعلاميّة الغربيّة عامّة، والأمريكيّة بشكل خاصّ، ليست سوى إمبراطوريّة الكذب، وتزييف الحقائق، والتّلاعب بالصّورة، وحجب الوقائع، وليست إلّا صورة ما تريد الإدارة الأميركيّة ولوبيات الضّغط تظهيره للرّأي العامّ لا سيّما الدّاخل الأمريكيّ، فتغدو الحرّيّة للأمريكيّ ليست سوى القدرة على الإختيار بين حقّ أُلبس لباس الباطل لتنفر منه، وباطل صُوِّر بمظهر الحقّ لتُقبِل عليه. فلا غرابة والحال هذه، أن تسقط أنظمة بحجّة امتلاك أسلحة محرّمة دوليًّا، أو السّعي لامتلاكها لم ولن يُثبت وجودها أبداً، أو تُفرض إجراءات اقتصاديّة ظالمة على شعوب بأكملها، فيما تقوم الآلة الإعلاميّة بتسويق أنّها فرضت على النّظام فقط، على أن المفارقة الكبيرة هي أنّ من يهدّد بالحرب، دولا أخرى بدعوى امتلاك أسلحة محرّمة دوليًّا هو الأكثر استعمالاً لها عبر التّاريخ، بل هو أوّل وآخر -إلى الآن- من استعمل السّلاح النّوويّ.

المحور الثّالث: هو محور تنفيذ الخطط عمليًّا عبر الحروب العسكريّة والإقتصاديّة والسّياسيّة والإجتماعيّة.

هي حروب إبادة بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى، وهي حروب رافقت الولايات المتحدة الأمريكيّة من قبل نشوئها، وأعني منذ لحظة اكتشاف القارّة وغزوها من الأبيض القادم من أوروبا، لتبدأ بعدها مباشرة حروب الإبادة الجماعيّة للسّكّان الأصليّين. ولم تكد تنتهي هذه الحروب، حتّى خاض المحتلّون حربًا أسموها حرب الاستقلال ضدّ البريطانيّين، ولا ندري من يستقلّ عن من، وهم جميعًا غُزاة؟!

ثمّ جاءت بعدها الحرب الأهلية بين الشّمال والجنوب، لتتوالى بعدها سلسلة الحروب. ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ الولايات المتحدة الأمريكيّة هي أكثر الدّول خوضًا للحروب مقارنة بعمرها، وهي أكثر الدّول فتكًا من ناحية عدد الضّحايا، الّذين خلّفتهم حروبها مقارنة بعمرها أيضًا. وإذا كان «ميكافيللي» أوّل من أطلق مقولة «الغاية تبرّر الوسيلة»، فإنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة هي الأكثر عملاً بها، وإخلاصاً لها.

وعلى أيّ حال، فقد أظهرت البحوث الجادّةُ حول تاريخ القتل والإجرام الأميريكيّ، سمات بنيويّة للعقل، والشّخصيّة الحضاريّة الأميركيّة القائمة على العنف، والإفناء، والقتل، وتجريم الآخر لكونه آخر، وهي ترتكزُ على قواعد فكريّة وحضاريّة متّصلة بالجذور الأوروبيّة للعنف. إنّه العنفَ بصيغته الأوروبيّة، المتمحور حول الأورو-مركزيّة الحضاريّة المتعاليّة والغارقة في الشوفينيّة والاستعلاء على الآخرين، ذات الاتّجاه التّبريريّ لفعل التّسلُّط والقتل.

إنّ مشهديّة العنف الأميريكيّ ترتكز في عمقها إلى روحيّة إبادة السّكّان الأصليّين، والاستيلاء على أرضهم وخيراتهم، والإمعان في قتل الرّوح الحضاريّة والثّقافيّة لهذه الشّعوب الأصليّة، بما يضمنُ أبديّة الاستعمار المباشر وغير المباشر، وضمان بقاء الأوروبيّ والأميريكيّ في المقدمة دومًا، وهذه الرّوحيّة هي صناعةٌ أوروبيّة في عهود الاستعمار الكولونياليّ الأوروبيّ، الّتي سادت الكرة الأرضية طوال قرون إلى منتصف القرن العشرين. وهذا الموضوع، قد تمّ بحثه بشكلٍ دقيق وموسّع في العدد الماضي من مجلّة «أَمَم». وفي هذا العدد، نتطرق إلى التّنظير الفلسفيّ للحرب والقتل في العقل السّياسيّ والحضاريّ الأميريكيّ، خصوصًا في ما يتعلّق بالمرجعيّات الفكريّة النّظريّة للعنف، عند صقور الإدارة الأميريكي المؤثّرين على مستوى القرار والقيادة والاستراتيجيا.

القضيّة الثّانية الّتي يبرزها هذا العدد في بحثه حول العنف وتاريخ الحروب الأميريكة، هو إبراز

لا أخلاقية التّفوّق الأميركي وبُنية الدّولة الحديثة الأميركيّة، من خلال إظهار سـمة عامّة رافقت هذا البناء، وهي الكلُفة البشريّة العاليّة جدًّا، الّتي دفعتها الشـعوب من دمائها، من أجل بناءٍ وبقاء الدّولة الأميركيّـة؛ ولذلك، أبرز هذا العدد من المجلّة -وضمن إحصاءات دقيقةٍ- الأعدادَ المخيفة للقتلى وضحايا حروب أميركا في مرحلة التأسيس فقط، لتظهر هذه الإحصائيّات كَذب ادّعاء القوة والمسار الحضاري المتقدم، الّذي تروّج له السّياسة والإدارة الأميركيّة.

إنّ حقيقةَ المسار الدّمويّ الواسع هذا، أفسح المجال بشكل لا لَبْسَ فيه، أمام تعرية الدّعاية السّياسة الأميركيّة المختبئة خلف شـعارات حقوق الإنسـان والدّيمقراطيّة والإنسـانيّة، وذلك ببداهة المسار الإجرامـيّ، الّذي لم يكن من الممكن إخفاؤه عن الشّـعوب في العالم. لقد أظهـرت البحوث الّتي تـمّ إجراؤها، حجم التّمويل الكبير والتّخطيط الّذي تقوم بـه أميركا، فيما يخصّ التّضليل الإعلاميّ، واللّعب بالعقول، وتحوير الحقائق، واستغلال إرادات الشّعوب بشكل براغماتيّ، خدمةً لمصالحها.. إنّ تاريخ التّضليل الإعلاميّ والكذب والتّزوير وتحريف الحقائق، الّذي مارسته أميركا في حرب فيتنام، والخليج الأولى والثّانية، وحرب العراق، وسوريا، وبطبيعة الحال فيما يتعلّق بكلّ حركات المقاومة في بلادنا، وابتداع تسميات الإرهاب والتّطرّف وإخراجها من صنف البشر في تبرير مسبق للقتل والإفناء، يشـهد على حجم التّزوير وإرادة الإجرام والقتل بشـكل عمديّ ونهائيّ، كأسلوبٍ أميركيّ أصيل في العمل السّياسي والإنسانيّ.

وتظهـر أبحاث هذا العـدد كذلك، الآثار التّدميريّة الواسـعة للحـروب الأميركيّة في الحربين العالميّتين، وحرب فيتنام، وغزو أفغانستان، وخصوصًا الاستخدام الواسع للأسلحة المحرّمة دوليًّا، بالأدلّة والمعلومات الإحصائيّة الدّقيقة، الّتي تظهر عدم اعتناء هذه الحضارة بأدنى حقوق الإنسان، والقوانين الدّوليّة الإنسـانيّة الّتي تمّ الاتّفاق عليها في المواثيق والعهـود الدّوليّة. رغم أنّ اضطرار الحكومات الأميركيّة المتعاقبة إلى اسـتخدام القوّة المفرطة غير الشّرعيّة والمسبّبة للدّمار الشّامل، كما فعلت في هيروشـيما وناغـازاكي، وفيتنام، والتّدمير الوحـشيّ للعراق وبُنـاهُ التّحتيّة وموارده البشريّة وفرض الحصار الجائر عليه، وعلى الشّـعوب الأخرى كاليمن وفلسـطين ولبنان وسـوريا وإيران، وغير ذلك، يؤشّر إلى الضّعف الحضاري المتمكّن التّدريجيّ الحاصل في القوّة الأميركيّة والكامن فيها، بحيث أنّها تلجأ إلى الإجرام والوحشيّة من أجل حسم النّزاعات وتحقيق مصالحها، وهو أمرٌ لا يرتبط بالعمل السّـياسي بأيّ صلة. ومن جهة أخرى، سـبّب هذا السّلوك الإجراميّ في

استعمال الأسلحة المحرمة دوليًّا، بإيجاد نوعٍ من التّبرير والمشروعيّة في استخدامها، عند حلفائها خصوصًا الدّول الأوروبيّة الّتي تستخدمها أميركا في حروبها، وكذلك الدّعم منقطع النّظير الّذي ناله البائد "صدّام حسين" في حربه على شعبه والشّعوب المجاورة، واستخدامه أسلحة محرّمة دوليًّا كالأسلحة الكيميائيّة، وأساليب القتل الممنوعة وغير ذلك، وكذلك ما قامت به إسرائيل من جرائم وحشية مدانة منذ سبعين عامًا، فيما يشابه المسار الإجراميّ التّاريخيّ لأميركا في استئصال الشّعوب الأصليّة، وفي استخدام كافّة أنواع القتل، والجرائم، والأسلحة المحرّمة في سياق الحرب الوجوديّة المدّعاة للكيان الإسرائيليّ المغتصب، وكلّ ذلك تحت رعاية، ودعم، وتمويل، وتوفير غطاء قانونيّ ودوليّ وإعلاميّ أميريكيّ. وهذا الّذي نشهده حاليًّا في غزّة والضّفة، أمام أعين العالم. فضلًا عن انتهاكات حقوق الأسرى والمسجونين، الّتي شكّلت فضيحة كبرى لمزاعم أميركا والعالم الغربيّ، في محتجزات ومعتقلات "أبو غريب" و"غوانتنامو" وبقيّة المعتقلات السّرّيّة في العالم.

إنّ هذا المسار من الوحشيّة، والقتل، والكلفة الإنسانيّة الباهظة، الّتي يتكلّفها المجتمع الإنسانيّ العامّ، تحت وطأة القوّة العسكريّة والاستعماريّة الأميركيّة الغاشمة، والسّيطرة الخبيثة على الاقتصاد، والإعلام وصناعة المعرفة عالمياً، وارتكازه إلى سياقات بنيويّة معرفيّةٍ مرتبطةٍ بأصول توراتيّة-مسيحيّة وفق قراءات طهرانيةٍ خاصّة، ونتيجة فلسفات القوّة والعبثيّة والنّيوليبراليّة، الّتي تبرر لصاحب القوّةِ ممارسةَ ما لديه من قدرة، من أجل تحقيق مصلحتهِ كقيمة حضاريّة عليا. وهذا الأمرُ، يخضع لنقاش حضاريّ وقيميّ في الصّميم؛ ولذلك، كانَ لا بدّ من فتحِ آفاقٍ أوليّةٍ للباحثين، في طرح نقاش فكريٍّ وأخلاقي وفلسفي معمّق حول النّظرة الإسلاميّة لاستخدامِ أسلحة الدّمار الشّامل ومشروعيّة ذلك، وإظهار المبادئ الصّحيحة والسّليمة لحدود استخدام العنف في الصّراعات، وحلّ النّزاعات مع الآخر، وكيفيّة بناء حياة اجتماعيّة "أكثر إنسانيّة". وكذلك النّقاش والبحث حول حقوق الأسرى من وجهة نظر إسلاميّةٍ، والّتي تظهر الإطار الإنسانيّ والحقوقيّ الشّرعيّ، الّذي يؤمّنه هذا الدّين للأسرى، في مشهد مخالفٍ للسّائد تحت نظر، وفعل، وتأييد الإدارات الأميركيّة في القرن الفائت، المليء بالجثث والقتل والمصابين والمتضرّرين من الإفراط في استخدام العنف والحرب دون حدود.

رئيس التّحرير

8 يونيو / حزيران 2024م الموافق 1 ذي الحجّة 1445هـ